قراءة جديدة لديوان «النار والكلمات»

لغة التجربة في شعر البياتي

بقلم عبد العزيز شرف

لا شك ان هذا العصر الذي نعيشه يحتاج لذلك النوع من الشعراء ، الذي حدده عبد الوهاب البياتي بأنه لا يرتبط بثورة عصره وبلاده فقط ، وانما بثورات كل العصور وكل البلدان ، لان روح الثورة تحل في الحياة وتنتصر على الموت وتحل في الاشياء فتمنحها الحياة .

فالشاعر ـ كما يقول باسترناك ـ ليس نوم ليل وقيام نهار وسيرا على قائمتين .. ان الشاعر شيء غير هذا .. انه مدينة حقيقية لها وجود واقعي ، مدينة كبيرة مترامية ، متنوعة الابنية والطرقات وفنون العمارة ومستويات السطوح والتنظيم ولكنها مدينة غريبة ، تختلف عن سائر المدن ، مدينة لا يكاد يزول عنها الشتاء ، الظلمة ترخي سدولها في ساعة مبكرة جدا من النهار هناك .. ويوم العمل في تلك المدينة لا تقوم قائمته في ضوء الشمس ، بل في المساء تحت اضواء المصابيح . وفي بداية نشأتها تسود الوحشة الفظيعة المروّعة دروب تلك المدينة ومغانيها .. ولا بد من فتحها وكسر وحشتها وعدم اكتراثها ، ويوما بعد يوم يروض من اخلاق هذه المدينة الوحشية ما يروض .. وتكثر في شوارعها ومغانيها الاضواء وتشتعل المواقد في المدافيء ، ولكن الجليد يظل على حاله مغطيا بغلالته البيضاء كل شيء .

ميلاد الشاعر مثل ميلاد العملة الجديدة المصكوكة من الفضة ، تخرج من يد الصانع لامعة طريفة ، ثم تتعرض لالوان من الحظوظ ، فهذا طفل يتخذ منها طوقا يتلهى به ويدحرجه على الارض ، وهذا شحيح يجمع النقد على النقد ، وهذا مكلاف لا يلم بيده النقد حتى يخرج ، وتظل القطعة الجديدة اللامعة تتقلب بين الايدي وتتقلب عليها الحظوظ الى ان تذهب جدتها اللامعة ، وتنتهي الى فلاحة عجوز تدفنها في جورب صوفي قديم حيث تفقد طلاوتها الى الابد ، ويعلوها الصدأ ، وتتلاشى شخصيتها بعد ان حرمت الشمس والهواء (١) .

ولكن الشاعر الذي كانه البياتي منذ طفولته ، والذي انحدر من اعماق قرية فقيرة حكم عليها بالصمت منذ آلاف السنوات ، كان يحمل مدينة الشاعر التي لا يكاد يزول عنها الشتاء ، بالرغم من شمس الشرق الساطعة ـ معه ، بعيدا عن اعين الفضوليين والادعياء ، «كنا نعاني الموت ونتنفسه ، وكانت المقبرة قبالنا ، فلا يمر يوم الا ونرى الموتى الذين يعيشون الى مثواهم الاخير . وكنا نسير وراءهم ، نحن الصغار ، لنشاهد عملية دفنهم . فالموت موت الانسان والحيوان كان امرا مألوفا لدينا ... كان الموت يتربص بنا في كل مكان ، وكنا نوقد له الشموع ونحرق البخور لطرده . فلقد كانت حياتنا شحيحة بائسة ، وكان مستحيلا علينا ان نقتسم معه البؤس ونقدم اليه عشاءنا الاخير . لقد كان الموت عدوا لهذا الطفل الذي يحمل مدينة الشاعر ـ التي سفح على اسوارها كثيرا من الدموع ، وترك على ابوابها الالف موته الخاص ـ وكان على هذا الطفل أن يعقد هدنة مع عدوه الموت الى الابد . فما اعطاه الموت لن يأخذه . فالشاعر الذي حل في الطفل سوف ينتزع نفسه ، لينطلق من داخله ، بل سيقتل الطفل ، ليبقى الشاعر . ولكن الطفل القتيل بقدرة الشاعر ، يعود الى الظهور . فعودة الطفل الى الظهور انتصار للشاعر على الموت ، وانتصار للطفل في الانسان على المرض والشيخوخة والهرم والفاقة . فموت الاشياء في العالم او موت العالم في الاشياء بعث للشاعر وتفجير لطاقات الخلق والثورة في اعماقه (٢) » .

تلك هي التجربة التي عاشها شاعرنا اذن ، حيث يجتمع لديه في كل قصيدة : الليل والنهار والحياة والموت في صورة متغلغلة في قلب الانسان ، ولكن الشاعر يفاخر بقوة الشعر بكلمات تجعل من الشعر ذلك السلاح «اللامرئي» او «حرب عصابات داخلية» في النفس على حد تعبير روبرتو متى ، على الاعراف والمصالح الذاتية المصطنعة ، وعلى الافكار الاتفاقية المبتذلة :

« ايها الحرف
الذي علمني حب الحياة
ايها الحرف الاله
آه لا تطفيء مصابيحك آه
كل ما أكتبه محض صلاه
لك ، للعالم ما اكتبه
محض صلاه
وسلاح في يدي ضد السلاطين واحفاد الغزاه »

والواقع ان هذه المقدمة ضرورية لدراسة شعر عبد الوهاب البياتي ، وذلك حتى تساعدنا في مواجهة التحدي الذي تثيره اعماله الشعرية : عن العلاقة بين عالم اشعاره وبين تجاربه الحياتية . فما تشهد عليه الاعمال الابداعية له وزن اكبر من ارادة مبدعها . وهناك حقيقة بديهية اولى تفرض نفسها تتجدد كلما قرأت «النار والكلمات»

١ ـ ذكريات الصبا والشباب : باسترناك .

٢ ـ تجربتي الشعرية : عبد الوهاب البياتي .

من اشعار البياتي بوجه أخص : كل مادة العالم الشعري للبياتي مستعارة من تجارب حياته التي عاشها الشاعر ـ كمشروع ومحاولة وطفل ثوري ، فالصورة التي اختارها والكلمات التي عبر بها عن صوره، كل ذلك مستقى من اعماق تجربته الحياتية والابداعية . فقد رأينا كيف كانت الحياة التي عاشها الشاعر طفلا ، اشبه بالموت نفسه او بأطلال دارسة مهجورة ولكنها بلا اساطير :

«النار في الرماد
والموت في بغداد
ونشوة اللون وحزن الصمت والابعاد
والقلق اللاهث والحمى التي تقصف في ربيعها الاوراد
تشعل في الخطوط والالوان والسواد
حرائق الليل التي لا تنطفي
حرائق الاعياد
كانت ربيعا اسودا
طفولة ضائعة الميلاد
لم تطق الرقاد
توهجت عبر جدار المستحيل
وغد الحصاد
من أطفأ الشموع
من مزق في سكينه الفؤاد
من خبأ البذور في الصقيع
والدموع في قبعة الحداد
الشاهد القابع في الظل
تدلى راسه
ومـاد » .

ان المواد الشعرية الاولية في عالم البياتي مستقاة من حياته كلها ، بكل تفاصيلها البسيطة وبكل مصادفاتها الغريبة ، وهذا ما نعنيه حينما نقول ان البياتي قد استخدم في بناء اشعاره : لغة التجربة .

ذلك ان «اللغة» في شعر البياتي كائن موجود وحاضر ، وهو الوجود الذي يتم من خلال تجسد اللغة وتقمصها لملامح الشيء الذي يحس به ، ويفكر به .. ومن هنا يمكن القول ان الشاعر يتعامل بالاجساد الكاملة للالفاظ لا برموزها ، او بمعنى اخر ليست لغة التجربة هي اللغة المتوارثة المنحدرة من كتب البلاغة والمعاجم ولكنها اللغة الجديدة المتجددة من خلال عملية الخلق الشعري. وفي اعتقادي ان من اسباب اخفاق الشعر الكلاسيكي عموما وعدم قدرته على تقمص وتجسيد التجربة الحية الخلاقة لجوء شعراء هذا اللون من الشعر الى المعاجم والقواميس ، والى الثنائية الكامنة في لغتهم .. هذه الثنائية التي تفصم بين التجربة الخلاقة وبين اللغة ، اي ان لغة التجربة تصبح وتتحد وتتملك التجربة ، والتجربة تتملكها اي تصبح كما تصبح «انا» «أنت» و«أنت» انا .. اي انها الكائن الجديد الذي ينتصب في الشمس متحدا بظله ، اي الكائن الموجود الذي يختفي بظله ويختفي الظل فيه .. وبذلك ايضا يختفي التجريد ، اي ان لغة التجربة هي لغة الحياة ، وليست لغة التجريد .

وفي كل اشعار البياتي تقريبا نجد ان جرس الالفاظ وبنيتها، اي ما نسميه عادة «الشكل» في القصيدة مفرقين بينه وبين محتواها، يلعب في عملية التاثير دورا كبيرا ، ذلك ان عملية التأثير هذه تعمل بدورها بطريق غير مباشر في المعاني التي تفهم من الالفاظ .

بل ان لغة التجربة لدى البياتي يتحد فيها الاحساس بالوعي وبالفكر ، فتصبح هذه «الافانيم» الثلاثة «أقنوما» واحدا جديدا .

وفي شعر البياتي نلاحظ ان كل كلمة «مشحونة معنى» على حد تعبير «عذرا باوند» ، فلغته الشعرية مشحونة بالمعنى في القصيدة وخارجها ، ولكن كيف تشحن هذه الكلمات بهذا الشكل ؟ وكيف اتحد الاحساس بالوعي وبالفكر في لغة البياتي الشعرية ؟ او كيف اصبحت هذه «الاقانيم» الثلاثة «اقنوما» واحدا جديدا في شعر البياتي ؟ ذلك اذن هو السؤال الذي يحاول ان يقتحم الابواب الحقيقية في عملية الابـداع ..

وسنكتفي بقراءة جديدة في ديوان «النار والكلمات»(٣) في محاولة للاجابة عن التساؤل المطروح . ذلك ان لغة البياتي خير شاهد على تجربته : سواء في اختيار النغمات والالوان التي احاطت بطفولته او في انتقاء الصور والكلمات والالفاظ ، وتراكيب الجمل المستوحاة من رحلته الروحية والمكانية .

«... وتعثرت بآلاف القوافي والحروف
وتبارزت بآلاف السيوف
فاذا بالشاعر العائد ما زال يطوف
مركبي ضل
ومهما ضل ، فالدنيا ظروف
كل ما اكتبه ـ
يا سندبادي
كل ما اكتبه محض حروف
فانا اعتصر الحرف وورقائي مع الصبح هتوف
آه لا توقظ جراحاني
ولا تملأ رقادي بالطيوف » .

كتب البياتي يقول : «وان بعض الكلمات لتكتسب في عيني احيانا صفات الكائن الحي فلا تكون مجرد كلمات مفردة ، اذ تضغط وتثوى فيها عوالم كبيرة ورؤى وذكريات حتى تصبح اشبه بالقمقم الذي حبس فيه العفريت او الجني الذي هو الحياة . تظل مثل هذه الكلمات تطاردني وتفرض عليّ وجودها بصورة طبيعية كأنها جزء من ذاتي ، وليست عبئا عليها . وهي احيانا رموز ومفاتيح لاشياء نسيت وماتت وترسبت في اعماق الروح ، وفي احيان اخرى تصبح دلالات على اشياء غير موجودة في هذا العالم على الاطلاق ، او انني اتمنى ان تكتسب هذا الوجود :

«لقد خرجت من المنزل ، فبادرني هو بالسكر
وكل نظرة منه تخبيء وراءها مئات المنازل
وحدائق الورد (٤) » »

ومن هذه المنطلقات يمكن القول ان استخدام الشاعر للغة التجربة منحه طاقة هائلة وقدرة على تجاوز نفسه وتخطيها دائما وأبدا وعلى تجديد نفسه ، بعكس اللغة المجردة التي تضفي على جميع تجارب الشعراء الكلاسيكيين ظلا واحدا ولونا واحدا مكرورا .. وتحبس قاموس مفرداتهم في قمقم واحد ، وتخنق الفضاء الواسع الذي يمنحه الوجود الشعري للغة ..

ان لغة التجربة في شعر البياتي اذن تكتسب صفات الكائن الحي ، وهي في «النار والكلمات» : تصبح في خدمة الحياة والحياة تصبح في خدمة الكلمة . او ان الأخذ والعطاء بين الحياة والكلمة متبادل ، وكذلك فان كلا منهما يمنح الاخر وجودا جديدا متجددا .. ولنقرأ معا قصيدة «الحرف العائد» التي اكتفي منها هنا بمقتطفات لنجد تجسيدا كاملا للقضية التي طرحناها كلها .. فها هو الشاعر يخاطب الحرف :

---

٣ ـ «النار والكلمات» منشورات دار الاداب بيروت ، طبعة ثانية

٤ ـ البيتان لجلال الدين الرومي وهو من اعظم الشعراء المتصوفين، ويدعى ايضا : جلال الدين مولوي . ولد في مدينة بلخ وتركها في طفولته ابان حملة المغول ليذهب مع والده الى آسيا الصغرى ، وهناك استقر مع اسرته حتى توفي بها عام ٦٧٢هـ (١٢٧٣ م) انظر : تجربتي الشعرية : البياتي .

«ايها الحرف
الذي علمني جوب البحار
سندبادي مات مقتولا على مركب نار
وطني المنفى
ومنفاي الي الاحباب دار
وجه امي ، ابدا ، المحه عبر الجدار
وجه امي والصفار
والمصابيح التي تهزم في شارعنا ضوء النهار
ايها الحرف المدمى
ايها المنفي
يا محض شعار
انني احمل بغداد معي في القلب من دار لدار
ابدا لن يستر الثوب المعار
عري اهلي
آه من عري القفار
آه لو عدت الى بيتي
لمزقت مكاتبي وأوراق الغبار
ولعلمت الصغار
كيف أبحرنا على مركب نار »

كما ان لغة التجربة تعني تسمية الاشياء باسمائها ، ولا يعني ذلك المباشرة ، كما لا يعني الغاء الرمز ، وانما اقصد بتسمية الاشياء باسمائها ان «الشجرة» لا يمكن ان تكون «حجرا» او العكس ، كما ان «الأعور» مثلا لا يمكن تسميته باسم آخر ، فعندما نسمي «النخلة» «شجرة» فان كلمة «الشجرة» في مثل هذه الحالة تفقد معناها الحقيقي وتتحول اللغة الى ما يشبه الحجارة او عملة قابلة للتحويل. فالنخلة لا يمكن ان نصفها الا بالنخلة .

فلغة التجربة في مثل هذا المفهوم تصبح سلاحا خطيرا قادرا على مواجهة الشر وتحديه ، وقادرة على دك العالم القديم وتدميره.. يقول البياتي :

«نخلات الأهل في افق السهاد
ضوأت واحترقت
فهي رماد
أين من يأخذ ثأر السندباد
أيها السيف الذي للغمد عاد
دمنا كان المداد
يا تلال كتب الاشعار يغزوها الجراد
دمنا كان المداد
أين من يأخذ ثأر السندباد »

وهكذا يمكن القول ان لغة التجربة لدى البياتي جعلت من الشعر رسالة ومعنى .. ويستطيع الشعر ايضا من خلال لغة التجربة هذه ان لا يسهم في عملية الثورة الشعرية وحدها ، وانما يسهم في عملية الثورة الاجتماعية والسياسية ايضا ، ويكون موازيا لها ومساويا لها .. اي ان الثورة في مفهوم البياتي لا تلغي دور الشعر ، والشعر لا يلغي دور الثورة :

«وكنت
كلما شب لظاها
شب .. صحت :
أيها النار اضيئي كلماتي
واصنعي منها وجودا لحياتي
فهي خبزي وسلاحي
وجناحي
وأنا من دونها اعمى ..
وصحت ..
وتمزقت ، وكان الثلج ربى
يغمر الغابة
يطفو فوق هدبي
عندما استيقظ حبي » .

ويمكننا ان نلمح تجسيدا لهذا المفهوم الثوري للكلمات ، في قصيدة اهداها الى «لويس أراغون» الشاعر الذي اهتم باعادة الاتصال المنقطع بين الشعر والشعب ، بعيدا عن كل تقليد لشعر النخبة ، والذي اراد ، وهو يعيش نفس محنة البياتي تقريبا في الاطار الموضوعي لحياة كل منهما : ان يستعيد الشعر شعبيته القديمة وأن يمس الاحساس والذاكرة ، وأن يغني : (وعلاوة على ذلك ، أليس من الواجب الحتم ، في الساعات العصيبة ، عزف «الكلمة الانسانية الحقيقية ، وايقاعها ايقاعا يخرس البلابل» ؟)

من اجل ذلك جاءت قصيدة البياتي الى «أراغون» من ذلك النوع الذي يخرس البلابل بايقاعه وتجسيدا لقضية الشعر والثورة :

«كلماتك الخضراء في ليل انتظاري
نفذت بلحمي مثل نار
ثارت الى صمت البحار
عبرت صحاري
حلت بداري
ضيفا
وباتت في قراري » .

وتنجم دقة التجسيد الثوري للكلمات عند البياتي عن أدق الوسائل وأخفاها ، والتي لا تضير البساطة فيها الصفاء الشعري ، ذلك ان المعطيات الثورية لحياة البياتي هي نفس معطيات شعره ، مما يضع «كلماته» أمام ضرورة مواجهة «الكل» ، وان يكون موضوعها مطابقا لحياة «الكل» ، وفي أشعار «النار والكلمات» نرى سماء صافية تنتشر فوق عالم ساطع مليء بالاشياء ، بعد الغسق الداخلي، ينتصب قوس قزح العلم المحسوس :

«كتبت باسم البسطاء أحرف القصيد
عمدتها بالدم
عمدت بها صباحنا الوليد
وها انا وحيد
أمد قوس قزح لوطني البعيد
أرفع راية الشهيد
أحمل من منفى الى منفى عصاي ،
حبي الشريد
فليهنأ الامير ، فالشموس والجليد
قبعتي
تاجي الذي اشتهيته ، ملاذي الوحيد
وليهنأ الرفاق ، فالحديد
والسل والحصار لن يفل من عزيمة الفارس ،
لن يجعلنا عبيد »

وفي هذا الديوان ، تظهر الاشياء ساطعة ، وتنحصر مهمة الشعر «بالدلالة عليها» ، ويصبح شعر البياتي تعدادا للعالم المحسوس «وتسمية للاشياء بأسمائها» أي ان الاهتداء الى الوضوح لم يحل محل الاستسلام الى الغموض على حد تعبير «غايتان بيكون» :

«قصائدي : بساطة العصفور وانتفاضة العبيد
وقصفة الرعود
وحسرة الربيع في جنائز الورود
وصرخة الانسان في دوامة الوجود » .

وهكذا ، لم يتل النهار المشرق الليل البياتي حينا ما ، شيئا اخر سوى غسق فجر ينتظر العالم سيره نحو النور الذي يغمر الظلام،

وسوى بشرى بان «ليل الحب يفضي ، حتما ، الى فرح النهار» كما حدث مع صديقه «بول ايلوار» ، حيث تاكد ان الشاعر لم يكن قصده من صعوده «على ذراع الليل» الفرار من وجود عالم محسوس الى نوع من الاختبار الصوفي ، ولم يكن ليله ، حينا ما ، التخلص من العالم ، فان هو اغمض عينيه عنه ، فذلك لكي يفتحهما على عالم جديد ، حيث «الفجر يذيب المسوخ» :

«قبضة الملح التي تلقى على الميت في ليل الخناجر
صيحة الطير المهاجر
زنبق الحقل الذي يذبل في ديوان شاعر
ريشة البلبل
انات القيثار
قلب بغداد ، ملايين الحناجر
صرخت بالموت : كلا !
هزمت ليل المقابر
عرّت الاشباه والخصيان من تيجانهم
داست على انف المكابر
نزعت أثياب نمر الورق المحشو بالقش ،
وأثواب المخانيث العواهر
فاذا الكل على مزبلة التاريخ اصفار واشباه قياصر
يعلكون الخطب الجوفاء في عيد المساخر
يا جواد الصبح ، يا لوعة حرف في المحابر
ظل محبوسا ،
وظل القلم الحر يحاصر
وجه هولاكو .. »

ان المفهوم الثوري للكلمات عند البياتي يمزق الثنائية الكامنة في طبيعة فكر البورجوازية الصغيرة التي تحاول الفصل بين ثورة الفن وثورة الانسان ، ويبتعد بالشعر عن الصوفية المبتذلة والهلوسة والتعالي والادعاء الفارغ ، وها هو الشاعر يلقن درسا «لشاعر عدو»:

«الكلمات تصنع السماء والاشجار
والحزن والاشعار والامطار
الكلمات النار
لكنما الاحجار
تبقى على الرصيف
تبقى ابدا احجار
يلعب فيها الشاعر الاعمى
ويبني حوله جدار
رايتها ، رأيته
مهرجا في السوق محمولا على الاكتاف في غاشية النهار
تبيعه ، يبيعها
من يشتري الاحجار ؟
غير الملوك المفلسين وذوي العاهات والأصفار » .

وهكذا يعلمنا الشاعر ان الحب الحقيقي الذي تجسده قصائده لا ينبع من خلال المثالية الكاذبة ، ولا ينطلق من خلال المزابل والخراب والعهر والعمالة التي نعيشها في شرقنا العربي .. ان الحب يأتي مع الثورة .. وبدون الثورة لا يستطيع ان يرفع راية الحب المشبوهة المدعاة وسط الخراب الشامل الا شعراء البلاط الذين ـ دائما ـ وابدا يخونون المثل الانساني الاعلى ، ويخونون الشعر الذي يدعون انهم حملة لوائه ، وهذا هو الشاعر يشهر ناره في كلماته في وجه «غرايهم» :

«.... هم يا صديقي
أطعموه لحومهم متطوعين
صبغوا به الجدران ،
ناموا حوله متثلجين
طافوا به الدنيا على أقدامهم متسولين
بنعيبه الدامي بنوا ابراج بابل ،
واستباحوا الكادحين
سرقوا الملوك المفلسين
مسخوا شعارات الرجال الطيبين
وقفوا على بوابة الليل الطويل مهومين
نطحوا الحوائط ،
سوّدوا الصفحات ،
عادوا خائبين .. »

وهكذا يمكن القول ان لغة التجربة في اشعار «النار والكلمات» قد اشهرت سيف الكلمة المؤمنة الحقيقية النابعة من طبيعة الواقع العربي ، وتسمية العور والاقزام والخصيان بأسمائهم الحقيقية :

«أوراق ورد طيرتها الريح
الأسد الميت خير من غراب ناعب يصيح
باع دم المسيح
ليشتري به حمارا ملكا كسيح

مشيت شهرا دون ان تعبر نهرا ايها الصديق
أنت بعيني ميت غريق
كان يحاكي الرعد والحريق
لانه يعرف من اين وكيف يبدا الطريق .
في وجهه براءة الاطفال
لكنه كان اميرا مفلسا محتال .
الريح في التلال
تعدو وراء الليل والظلال

الفارس الحزين
كان يغني تحت شباك امير مفلس بطين
مرت بالسنين
وانت لم تكبر ، أيالعين !

عباءة الجليد
تذوب تحت الشمس ، أنت صامت وحيد
لأن حبي مات منذ زمن بعيد
وها أنا اضحك في عبي وامضي تاركا عباءة الجليد» .

ولكن «الاعداء» الذين يشهر الشاعر كلماته في وجههم ، ويسميهم بأسمائهم «صبوا الماء على الماء» :

«رقصوا فوق حبال الكلمات الصفراء
صنعوا شعراء
نصبوا خلفاء
ومطايا وطواحين هواء
فاذا الكل هباء
قبض الريح
غشاء :
الشعر نقاط سوداء
الحب بكاء
التاريخ فتوح نساء
فالكلمات الكاذبة الجوفاء
ان تصنع عنقاء
من جمل الصحراء » .

ولكن الشاعر يعلمنا أن الحب الحقيقي ينبع من ضفاف اليأس العميق ، الينبوع الحقيقي للشعر وينبوع التجربة الحقيقية ، وينبوع اللغة الشعرية :

«حبي : مائدة الفقراء
حزني : بستان التعساء
فليشرب ماء البحر الاعداء »

وهكذا يحقق البياتي لقصيدته جمالا فنيا ، غير نابع من كمال ما تمثل او تشرح فحسب ، ولكن لكونها تؤثر فينا كما لو كانت كائنا حقيقيا ، مثل البحر والشمس ، او كما يقول بيير ريفردي : «لم يعد المطلوب اليوم التاثير عن طريق العرض العاطفي لاي حدث عادي ، ولكن يجب ان يكون هذا التاثير بنقاء واتساع تاثير السماء المرصعة بالنجوم وتاثير البحر الهادىء العظيم والضاجع ، وتاثير المأساة الكبيرة الصامتة التي تسطرها السحب تحت الشمس » .. بحيث تعيد اشعار البياتي طرح مهمة اللغة على بساط البحث، كما فعل جارودي : فمنذ حوالي ثلاثة ارباع القرن وقيمة الكلمات لم تعد تعبر بقدر ما اكتسبت من قيمة ابداعية . لم تعد مهمة لغة الشعر محاكاة الطبيعة او تقديم شروح على غرار الخطابة او القصة بل ابراز حقيقة جديدة . لم تعد الكلمات مجرد اصطلاحات بل غدت جزءا من الاشياء نفسها . «اللغة لم تعد وسيلة بل غدت كائنا» كما قال جاك ريفيير في دراسته عن حركة الدادية .

فمهمة الكلمات ـ كما يقول جارودي ـ ليست محاكاة الاشياء والتشكل عليها ، بل مهمتها على العكس ، تفجير تعريفاتها وحدودها النفعية ، ومعانيها التقليدية الشائعة الاستعمال لنستخلص منها امكانيات غير متوقعة وآمالا ومعاني كامنة مدهشة تحملها في طياتها، وتحول الوقائع المعروفة بابتذالها الشديد الى مادة تخلق الاساطير .

ونجد هذا التوافق بين مختلف الاحاسيس عند عبد الوهاب البياتي حينما يشير الى «الكلمات والبراكين التي تقذف بالحمم» وايضا التوافق بين الاشياء وبين مغزاها للكون بمجموعه :

«النهر للمنبع لا يعود ـ النهر في غربته يكتسح السدود»

وتسود مسالة مغزى الكلمات في كل شعر عبد الوهاب البياتي شانه في ذلك شان سان جون بيرس ، حيث الانسانية الملحمية تجد قيمتها في اعمال الانسان وابداعاته الخلاقة، حيث «الفكرة الخلاقة ـ تجرف في طريقها المسوخ والطبول ، وتحرث في اعصارها الحقول ، وتعيد صنع الرائع النبيل » :

«تمنح للممثل القتيل
دما جديدا ، مسرحا جديد
تنفخ في قصائد الجليد
حرارة الخلق ، تعيد خلقها ، تعيد
تنزع عن انساننا القناع
تنزع رأس الدب عنه ، تغمر الاعماق بالشعاع
تكسوه بالريش وبالازهار
تمنحه اجنحة من نار
الفكرة الاعصار .. »

وعندما تكون مهمة الشعر التقاط هذه المعاني ونقل رسالتها او الهاماتها ، فانه يتعذر كما يقول جارودي ـ صبه في القوالب النبوئية او الموحية «شكل آيات ابتداء من آيات التوراة ، حتى الكلاسيكية المعروفة لبيت الشعر المقفى . وتتخذ بالضرورة هذه اللغة آيات زرادشت» وابتداء من آيات سان جون بيرس حتى آيات عبد الوهاب البياتي .

لقد نهل البياتي من كل المأثورات التاريخية والحضارية لشعبه وللعالم فكانت «اغاني الفلاحين والحكايات الشعبية المنتشرة في الريف هي زاده الشعري الاول » فقبل ورفض في آن معا ، من الشعراء العرب : طرفة بن العبد وابا نواس والمعري والمتنبي والشريف الرضي ، فوجد فيهم نوعا من التمرد على القيم السائدة ، والبحث عن اشياء لا يوفرها مجتمعهم او واقعهم او ثقافتهم . ورغم هذا فقد انتابه «ازاءهم نوع من القلق حينما تبين ان لغتهم كانت لغةمصنوعة، كانت الاشياء التي يصفونها موجودة قبل وجودهم ، وان كلماتهم كانت تفقد حضورها في نفسه وتتحول الى دلالات فقدت عندهم الكثير من اصالتها . وانهم انطفأوا على اسوار عصرهم عاجزين عن تخطي رؤياه وامكانياته » .

ونتيجة لهذا الرفض القائم على فهم جديد لموسيقى الشعر المرتبطة بنوعية ومدى التجربة الشعرية ، استخدم البياتي في اشعاره ايقاعا موسيقيا خارجيا يتسق مع ايقاع تجربته الجديدة ، تجربة تقويض ابنية قديمة واختيار ائمن ما فيها لتشييد بناء جديد لحمته واكثر سداه ينعكس من واقع اجتماعي وفكري ووجداني مختلف .

وهذا التوافق الفريد بين الموسيقى والفكر في شعر البياتي ، يفرض علينا الوجود والحركة ، ذلك ان حركة القصيدة تفرض علينا تركيبا ايقاعيا وموسيقيا يجرفنا بنوع من الالحاح الضروري القسري. واي توقف او مجرد عرقلة او انحراف في هذه الحركة يكون اشبه بشرخ في قطعة من البللور على حد قول بول فاليري . ولنقرا معا هذه المرثية «الى ناظم حكمت» :

«الموجة العذراء
تضفر شعر اختها في وحشة المساء
تنزلق الاسماك في شباكها
تنزلق السماء
تحمل نعش طفلها الشاعر في ارجوحة الضياء
تسحر في غنائها زنابق الشواطىء السوداء
تطفو على جبينها الاعشاب والرمال والاهواء
من الف الف وهي في صلاتها الخرساء
مات على اقدامها «عوليس»
مات فارس الصحراء » .

اليس في هذه الموسيقى شبه من «ذبذبات قطعة البللور» على حد تعبير جارودي ، نستمع اليها دون ان نلاحظ انها كفت عن التذبذب ، ان لغة التجربة في شعر البياتي تشكل من مجموع اشعاره بعدا ملحميا للتجربة الانسانية ، حيث يتحد الاحساس بالوعي وبالفكر في اللغة ، وحيث تصبح في نهاية الامر سلاحا خطيرا قادرا على مواجهة الشر وتحديه ، وقادرة على دك العالم القديم وتدميره .

وكم يطيب لي ان اختم هذه القراءة الجديدة للنار والكلمات، بكلمات رائعة للشاعر تكشف ما عنيناه بان البياتي قد استخدم لغة التجربة :

«ولادة اخرى هو الموت ، هو الاياب
الرمل والحصى على الشاطىء والضباب
زوارق الحب
تحطمت
وغاص النور في العباب
ريشة نسر غرزت في وردة ، كتاب
ظل طوال الليل مفتوحا
وظل العندليب ساهدا في الغاب » .

القاهرة — عبد العزيز شرف